دراسات معاصرة
Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة-تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 07/ العـدد: 01/ جوان (2023)، ص.714/706

مقولات النقد الثقافي في المشروع النقدي لعبد الله الغذّامي

Sayings of cultural criticism in the critical project of Abdullah Al-Ghadami

نوال قرين
Nawal_krine18@yahoo.com
جامعة قاصدي مرباح -ورقلة-
(لجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/11/13 تاريخ القبول: 2023/02/27 تاريخ النشر: 2023/06/02

ملخص:
يسعى النقد الثقافي -بأدواته المنهجية وآلياته الإجرائية ومقولاته النقدية- إلى كشف المضمر النسقي المخبوء في الممارسات الخطابية الدالة تحت أردية مختلفة، منها الجماهيرية، والجمالية التي يتوسّلها الخطاب لتمرير النسق الثقافي أو ترسيخه، لذا تأتي المقولات النقدية للنقد الثقافي بغرض توجيه الدارس إلى مجمل الأنساق الثقافية التي تنتظم الخطابات الأدبية والثقافية عامة، وهي الجهد النقدي الذي قدّمه عبد الله الغذّامي من خلال ثالوثه الثقافي (النسقية، الفحولة، الشعرنة) الذي هيمن حسبه على الفكر العربي وبقي راسخا ومتحكّما فيه، ولهذا نتساءل: كيف استطاعت هذه المقولات النقدية الهيمنة على الثقافة العربية -خاصة الأدبية منها-؟ وكيف قدّمها عبد الله الغذّامي من خلال مشروعه النقدي؟

يهدف هذا المقال لعرض المقولات النقدية للنقد الثقافي من خلال المشروع النقدي للناقد السعودي عبد الله الغذّامي، والتي تأسست اتكاءً على تطبيقاته النقدية على مختلف الممارسات الخطابية الثقافية العربية، وكانت نتيجة لها.

كلمات مفتاحية: المقولات النقدية.، الغذّامي.، النسقية.، الفحولة.، الشعرنة.

Abstract:
Cultural criticism seeks to reveal the systemic implication hidden in the signifying practices that signify under different attires, including the Popular, and the aesthetic that the discourse invokes to pass or consolidate the cultural pattern. Therefore, the critical statements of cultural criticism come with the purpose of directing the researcher to the overall cultural patterns that organize literary and cultural discourses in general, and it is the critical effort presented by Abdullah Al-Ghadami through his cultural trinity (systemicity, virility, poetization), which according to him dominated Arab thought and remained firm and in control of it. This article aims to present the critical statements of cultural criticism through the critical project of the Saudi critic Abdullah Al-Ghadami, which was established based on his critical applications on various Arab cultural discursive practices and was a result of it.

Keywords: *critical sayings; Al-Ghadami; Systemic, virility, poetic.*

مقدّمة:

لكلّ منهج أو نظريّة أو مذهب مجموعة من الأسس والآراء والأفكار التّي تعتبر ركائز يستند إليها، ويتمّ الرّجوع إليها عند كلّ التباس، ويمكن أن تكون هذه الآراء-أو هي في الأغلب- مستقاة من نتائج البحوث والدّراسات.

ولم يخرج الباحث "عبد الله الغذّامي" عن السائد، إذ أنّ الدّارس يلاحظ اتكاء الناقد على مجموعة من المقولات التي وجهت عمله وساهمت في الوقت نفسه في الوصول للنتائج المرجّوة في البحث في كشف العيوب النسقية/ الثقافية التي تحكم الأدب العربي في شقه الشعري خاصة، ومن ورائه الشخصية الفردية والجماعية للمجتمع العربي قديمه وحديثه.

وأولى هذه المقولات التي حضرت بقوة في الطرح "الغذّامي" هي مقولة النسق/النسقية إضافة إلى مقولة الشعرنة، أي تشعرن الذات العربية واعتبار الشعر هو حاكمها المهيمن عليها وأخيرا مقولة الفحولة باعتبار المجتمع والفرد العربي هو مجتمع ذكوري يسيطر عليه الفكر الأبوي/ البطريكي (البطريركي)، والمقولتين الأخيرتين هما عبارة عن نسقين راسخين- حسب الطرح "الغذّامي" دائما- في الذات العربية، ومن ثمة فهما أزليين فيها.

2- مقولة النسق/ النسقية:

تعتبر مقولة النسق/ النسقية من مرتكزات المشروع "الغذّامي" الثقافي، ولقد تحدث عنها الناقد على المستوى التنظيري محاولا إعطاء مفهومه الخاص للنسق، ثمّ إنها كانت اللبنة الأساسية في الفصول التطبيقية حيث اعتبر مجموع القيّم والقواعد والأفكار التّي تحكم الذات العربية وتفكيرها عبارة عن أنساق ذات دلالات مختلفة.

لقد جاء مفهوم النسق مقترنا بالدراسات الثقافية التي كسرت مركزية النّص، ولم تعد تنظر إليه على أنّه نص، بل صارت تأخذ النّص من حيث ما يتحقق فيه، وما يتكشّف عنه من أنظمة ثقافية؛ فالنّص هنا يكون وسيلة وأداة في الوقت نفسه، -وحسب الدراسات الثقافية دائما- فالنّص ليس ''سوى مادة خام يستخدم لاكتشاف أنماط معيّنة''[44]، لعلّ أهمّها هي الأنساق الثقافية التي يحملها النّص سواء كانت سلبية(عيوب) أو إيجابية.

ويعرف مصطلح النسق انتشارا كبيرا يصاحبه التباس على مستوى المفهوم، فهو كما يقول "زكريا إبراهيم" يعني كلّ شيء ولا يعني شيئا محدّدا، وعموما فـ"الغذّامي" تبنّى لغويا مفهوم المعجم الوسيط على أنّ النسق '' هو ما كان على نظام واحد ''[1].

وعلى المستوى الاصطلاحي، فالمفهوم يتعدّد بتعدّد الآراء والاتجاهات، فبالإضافة إلى ما أشرنا إليه من مفهوم لغويّ، ، نجد مفاهيم أخرى للنسق على المستوى الأنتروبولوجي والنقدي، فهذا "رولان بارت" يشير إلى أنّ النّسق يعني ''بكلّ بساطة مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيتيقية...) تفرضها في لحظة معيّنة من تطوّرها، الوضعية الاجتماعية والّتي يقبلها ضمنيّا المؤلف وجمهوره''[2]، وهذا نصّ يقتبسه "عبد الفتاح كليطو"، مضيفا في هامش كتابه أنّ الأنساق الثقافيّة نوع من المؤسسات ذات قاعدة اجتماعية، وكأنّما "كليطو" يحاول شرح مقولة "بارت"، متّفقا معه حول أصل النسق، كونه يبنى اجتماعيا، ليكون هنالك نوع من التّواطؤ الخفي بين المؤلف والقارئ في تقبل هذا النّسق، ومن هنا يكتسب وجوده ويبني قاعدته الاجتماعية ذاتها.

ومن كلام "بارت" السابق، تكوّن مجموع النصوص المفردة، والإنجازات الفردية النص الثقافي الذي يحمل الأنساق الثقافية الاجتماعية، وبناء على ما سبق لا يمكن اعتبار أي نص مغلقا أو متوحدا أو مصنوعا من كتلة واحدة، إنه منفتح على نصوص أخرى ومعرفيات أخرى، يدمجها في بنيته[3] وتمنحه مظهرا مختلطا ومتجزئا، وليس للنسق الثقافي وجود مستقل وثابت، إنه يتحقق في نصوص تداعبه أحيانا، وفي الحالات القصوى تشوشه وتنكبه.

ويمكن أن نجد صدى لفكرة النسق الثقافي هذه عند العالم النفسي "يونغ"(Yong) متمثلة في فكرة "اللاشعور الجمعي" التي يرجع العملية الإبداعية إليها، ويرى أن الإسقاط هو العملية النفسية التي يحول بها الفنان المشاهد إلى موضوعات خارجية يتأملها الآخرون، ويحدد "يونغ" اللاشعور الجمعي بـ"جماع تجارب الإنسانية، وبالتالي يعتبر بمفهوم آخر الموروث الثقافي الذي يتم التفاعل بينه وبين الخطاب باعتباره شيئا يعبر عنا"[4]

واذا تم الربط بين الفكرة القائمة على أنّ: (الأنساق الثقافية نوع من المؤسسات ذات قاعدة اجتماعية) وبين ما ورد في كتاب الغذامي حول "المؤلف المزدوج"[5]، ونخص المؤلف الرمزي المتمثل في الثقافة التي تكون في لاوعي المبدع والمتلقي، فإننا نجد فعلا النسق الثقافي نوعا من اللاشعور الجمعي المسيطر والمدعم من طرف المؤسسة/السلطة ومن طرف الأفراد تدعيما لاواعيا.

أمّا "محمد مفتاح"، فيعود متسائلا ومستدركا: ''لكن، ما هذا النّسق المتحدّث عنه؟ فمهما اختلفت تعريفات النسق، فإنّه ما كان مؤلّفا من جملة من عناصر أو أجزاء تترابط فيما بينها وتتعالق لتكون تنظيما هادفا إلى غاية، وهذا التحديد يؤدي إلى نتائج عديدة''[6].

هذه الغاية الّتي يهدف إليها النسق، هو موضوع النقد الثقافي، الذي يهدف إلى تحليل هذه الغاية واستكناه أبعادها الثقافية، وعلى هذا الأساس بني مشروع الناقد "عبد الله الغذّامي" النقدي الثقافي.

2-1- النسق الثقافي / بين المفهوم والتوصيف:

إذا انتقلنا بعد هذا إلى مفهوم النسق في مشروع "عبد الله الغذّامي" النقدي، فإنّنا نجد النّاقد يقدم وصفا للنسق بدل تعريفه، فهو يرى أنّ النسق يتحدّد ''عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرّد ''[7]؛ بمعنى أنّه يتحدّد من خلال فعله في النّص وليس كمعطى نظري فلسفي، وهذا ربّما مما يأخذ عليه النّاقد، وهي عدم تحديده لمفاهيمه بدّقة وأرجائه لكثير منها وخاصة مراوغته القارئ في مسألة تحديد النسق بتقديم مجموعة من الشروط والمواصفات كمحدّدات ودلائل على النسق. ومن هذه الدلائل:

* يحدث أن يتعارض نسقان/نظامان من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر، ويعتبر هذا أول الشروط (التناقض بين نسقين).

* ثم أن يحدث هذا التعارض في نص واحد أو فيما هو في حكم النص الواحد.

* بعدها أن يكون النص جماليا، إذ تتقنع الثقافة بالجمالي لتبرير وتمرير أنساقها وترسيخها أيضا، ويستهلك بوصفه جماليا، ذلك أن الجمالية هي أخطر حيل الثقافة لتمرير هذه الأنساق[8].

* يليها: أن يكون النص ذا قبول جماهيري ويحظى بمقروئية عريضة، وذلك لكي نرى ما للأنساق من ''فعل عمومي/جماهيري ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي''[9].

* وينبغي هنا التفريق بين الجماهيري والشعبي، أو ما يعرف بالثقافة الجماهيرية والثقافة الشعبية، إذ ترتبط هذه الأخيرة بما يعرف بالفولكلور (مجموع العادات الروحية للمجتمع)، أما الثانية فمرتبطة بوسائل الاتصال التي تنتقل عبرها في المجتمع/بين الجمهور)[10] ، وبهذا يكون الجماهيري في مقابل النخبوي الذي يكون في هذه الحالة معزولا وغير مؤثر تأثيرا جمعيا، إذ أنه ظرفي وغير مستمر.

وعبر هذه الشروط الأربعة حسب الغذامي يتم تحقق مفهوم النسق المضمر، الذي يختبئ تحت غطاء الجمالي، ليغرس ما هو غير جمالي في الثقافة.

وهكذا، ''فالنسق يحدد مرة باختلافه عن مفاهيم "البنية والنظام"، ومرة من خلال آثاره ووظائفه، إذ يحضر في عبارة يصوغها الفرد لكنها لا تعبر عن الفردي والجزئي بقدر ما تعبر عن الجماعي والكلي وبالتالي تصبح جملة ثقافية دالة على ذلك النسق وممثلة له''[11] .

وعلى كلّ، فهذه الدلائل يعتبرها "الغذّامي" كشروط ينبغي توفرها في النّص النسقي -إن صّحت العبارة- وهي نفسها صفة من صفات النسق، أو أولى صفاته، ويضاف إلى هذه الصّفة صفات أخرى متمثلة في:

- ينبغي أن توجه للنص قراءات خاصة على اعتبار أن نظرتنا إليه تجاوزت الأدبية والجمالية وأصبحت تنظر إليه كحادثة ثقافية تقتضي تشريحا يتجه إلى كشف الدلالات النسقية فيه، باعتبارها موضوع التحليل والكشف والتأويل.

- التأكيد على أن الدلالة النسقية ناتجة عن سيطرة نموذج ثقافي شامل يقوم بضخ محمولاته في ثنايا الخطاب[12].

- النسق الثقافي يتصف بكونه ''ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة''[13]، ولذا فهو بارع في التخفي وجذب الاهتمام، لذلك يحدث انقسامات بين الوعي الظاهر المنضبط، والرغبات السرية الخفية، ويقود ازدواج مكشوف في السلوك والعلاقات والمواقف، ولهذا فنحن مثلا نستمتع بنكتة ونطرب لها وجدانيا رغم أننا نرفضها عقليا، وبالتالي فـ''السخرية والباروديا والانتهاك، بدل خلخلته (النسق الثقافي) لا تفضي في الغالب سوى إلى تثبيت متزايد له''[14].

- الأنساق الثقافية أنساق تاريخية أزلية وراسخة في أعماق الجماعة/الجماهير ولها الغلبة دائما؛ وسائله هي الجمالي والبلاغي، وباعتباره كامنا في الجماعة، فهو يوجه السلوك الاجتماعي العام، يتجلى ذلك في الأغاني، الأزياء وحتى الحكايات والنكت.

- يشكل النسق "جبروتا رمزيا" يحرك الذهن الثقافي للجماعة/الجمهور، ويقوم بتنميط ذائقتها، وطرائق تفكيرها وميولها وأحكامها، فهو مهيمن عليها.
- ويشترط أن يتوافر في النسق الذي هو موضوع النقد الثقافي تعارض قائم في الخطاب (نظام التعبير والإفصاح)، مهما كانت الصفة النوعية لذلك الخطاب (مفرد، طويل مركب، ملحمي، مجموع إنتاج مؤلف ما، ظاهرة سلوكية أو اعتبارية،...إلخ)[15]، وهذا ما يؤدي إلى رواج هذا الخطاب جماهيريا، ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام رأي "بارت" (Barthes) في أن الأنساق الثقافية هي نوع من المؤسسات ذات قاعدة اجتماعية، أي أن الكوامن الاجتماعية للجمهور هي التي تصنع ذوقه (إذا نظرنا إلى الذوق باعتباره تراكما ماضويا وتكرارا ألفناه) ومن ثم توجهه.

إنّ هذه المواصفات الّتي يقدّمها الناقد الغذّامي للنسق؛ تبدو في مجملها قابلة للكشف عنها في النّص من خلال ما سّماه "الغذّامي" (القراءة الخاصّة) الّتي يقصد بها القراءة الثقافية/التحليل الثقافي الّتي توجّه للنّص على اعتبار أنّه أصبح (ممارسة دالة)، و"الغذّامي" يؤكد مرّة أخرى على ما ذهب إليه "غرنبيلات" من أنّ العيوب الخطابية عادة ما تتغلغل في الخطاب بطريقة الحلية الفردية.

أمّا النّقطة الّتي أثارت حولها الكثير من التساؤل والنّقاش، فهي كون هذا النسق تاريخي أزلي وراسخ، فهنالك الكثير من الباحثين من رفض هذا الوصف للنسق، وهنالك من ذهب حدّ التّشكيك في مرجعيّته الأيديولوجية التي قد تتجاوز النسق الثقافي الأدبي لمحاولة هزّ بنيان النسق الديني، كمحاولة لخلخلة القيّم الدّينية الإسلامية الرّاسخة.

وبعيدا عن هذا التّشكيك حدّ الغلوّ في الرأي، يذهب الباحث "سهيل الحبيّب" إلى مناقشة عقلانية لهذه الفكرة، ذلك "أنّ الأدبية الثقافية العربية التي يسعى المؤرخ الناقد في هذا الخطاب(خطاب النقد الثقافي)إلى استكشافها، إنّما هي أبنية تاريخية مرتهنة بأسيقة وحيثيات لا أبنية قارة فوق تاريخية"[16].

إنّ "سهيل الحبيّب" هنا يؤكّد على الخاصيّة الأولى للنسق، والّتي تكون نافيّة للخواص الأخرى، فما دام النسق تاريخي فهذا يمنع عنه صفة الأزليّة والرسوخ، لأنّه محكوم بأسيقة وحيثيّات ويقترن وجوده وعدمه بهذه الأسيقة ويوضّح الباحث المغربي "سعيد يقطين" فكرة تاريخية الأنساق الثقافية، مرّكزا على أنّ مفهوم التاريخ يحمل في ذاته دلالة البداية والنّهاية[17]، وهذا ما يعني- كتحصيل حاصل- تناقضه مع فكرة الأزلية والرّسوخ.

ومع هذا، يبقى في قول النّاقد "الغذّامي" بعض الصواب في وصفه للنسق بالرسوخ، فربّما هنالك مبالغة في توصيفه بالأزلية، لأنّ الأزلية تتجاوز البداية ولا تعرف نهاية، وهذا طبعا فيه مغالاة، أمّا رسوخ النسق فقد يحدث، من خلال وجوده في اللّاوعي الجمعي-كما وصفه يونغ- ومن ثمّة يتمّ تغيّيره ليتماشى مع مختلف الأوضاع التي يخضع لها.

3- مقولة الشعرنة:

لقد ركّز النّاقد "عبد الله الغذّامي" عمله "النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية" على دراسة الشعر العربي دراسة ثقافية، ليصل من خلال دراسته هذه إلى أنّ الشعر العربي بمدحه وهجائه وفخره أدى إلى شعرنة الذات والقيّم العربية.

من هنا، جاءت مقولة الشعرنة كإحدى المقولات والمفاهيم المركزية والمداخل العملية لولوج عالم النّقد الثقافي، ومن ورائه التّحليل الثقافي، من أجل كشف الأنساق المضمرة الّتي تخفيها النّصوص وتستّرها بغطاء الجمالية والبلاغة، وعلى هذا ينقل "الغذّامي" السؤال "إلى النسق الثقافي العربي كلّه، وهو نسق كان الشعر ومازال هو الفاعل الأخطر في تكوينه أوّلا. وفي ديمومته ثانيا "[18]؛ أي أنّ الثقافة العربيّة هي ثقافة شعريّة، تمكنّت حتّى في نفوس أولئك الّذين لا يقرؤون الشعر ولا يحبّونه، فالشعر لم يعد نصوصا في دواوين، ولكنّه قد تغلغل مع الزّمن "ليكون في داخل الجينات التكوينيّة للثقافة نفسها، ومن لا يقرأ الشعر يقرأ السلوك، ويرى القيّم الثقافية المتشعرنة"[19] ، وهو بعد هذا يستهلك الأنساق المتشبعة بهذه القيم.

إنّ هذا الحكم العام الذي يرمي به النّاقد "الغذّامي" الثقافة العربية والذات العربية الّتي تشعرنت -حسبه- لا نستطيع التسليم به بسهولة، فقد نتفق مع النّاقد أنّ العربي تسلبه اللّغة البليغة الفصيحة عقله ولبّه حين سماعها، وعادة ما ينبهر بهذه اللّغة الجميلة خاصّة وإن كانت لغة شعر، ذلك أنّ هذه اللّغة البليغة الجميلة ترتبط بطقوسه التعبديّة وفكره الاعتقادي (المعتقدي)، ومع ذلك، فالإنسان العربي يعي الفرق بين اللّغة كوجود مجرّد وبين اللّغة كوجود فاعل.

ونعود إلى "الغذّامي" مرّة أخرى لنجده يلقي اللّوم بتثبيت القيّم المتشعرنة على الشاعر/الشعراء الفحول الذين أبدعوا في فنّ المديح الذي شكّل خلطة ثقافية – حسبه- تحقق رغبة المادح/الشاعر والممدوح/الحاكم، إذ "لن يكون أجمل ولا أحلى من أن يرى الحاكم نفسه متربّعا على كرسيّ الشّرف مثلما هو متربّع على كرسيّ الحكم"[20]، وهذه الخلطة الثقافيّة مشكّلة من البلاغة والكذب الجميل، بينهما مادح وممدوح وكيس من الذهب، هذا شجاع كريم يعطي، وهذا شاعر بليغ يثني.

فالشعرنة إذن ناتجة عن لعبة النسق الشعري في الذات والقيم العربية عبر قدرته على صناعة الفحل الشعري والطاغية، ولإنتاجه تلك العلاقة الخادعة الّتي تظهر ما لا تضمر، "فينشأ خداع البصر وتنتج الشعرنة وتقام مملكة الأحادي والمصادر والمكرّس للذات"[21].

وإذا كانت هذه الأحادية والمصادرة والتكريس للذات تتم من طرف الحاكم/ السلطة السياسية غالبا، فإنّنا سوف نكون أمام سؤال آخر يفرض نفسه: هل ما يحدث هو سيسنة (من السياسة) أم شعرنة فعلا؟ ثمّ إنّ هذه الأدوات السلطوية –خاصة منها الأحادية- وما يتبعها من أساليب القمع وإلغاء الآخر، لم تقف عند حدّ "المؤسسات الاجتماعية والإدارية، وإنّما- وهنا تكمن الخطورة الفعلية- امتّد ليصل إلى المؤسسات الثقافية الّتي غدت ذات صوت واحد، وإلى المؤسسات التعليمية الّتي باتت عبر مناهجها وأساليب تدريسها توصل مبدأ الرأي الواحد "[22]، وهنا يبرز مثلا رفض بعض الدّول العربية لفكرة إنشاء مدارس خاصّة بحجّة عدم توفر شروط بنائها(شروط الولاء للسلطة السياسية/الثقافية المهيّمنة !)، وهذا لا يقتصر فقط على العالم العربي، إذ نجد "ويليامز" يتحدّث عن الظاهرة نفسها في أوروبا.

هذه النظرة الغذّامية الّتي تلبس الشاعر المسؤولية الكاملة يختلف معها "عبد العزيز السّبيل" إذ يرى أنّ المسؤولية الأكبر تقع على النّظام السياسي العربي عبر عصوره المتعدّدة واختلاف مناهجه، دون تبرئة ذمة الشاعر، باعتباره سمح لنفسه أن يكون أداة استخدمت كما يتّم استخدام العسكر والحاشية لتحقيق مآرب الحاكم، عبر بضاعته الّتي يتقنها: الكلام. ويعود "عبد العزيز السّبيل" ليناقش" الغذّامي" في الفترات التّاريخية للدولة العربية الّتي اعتبرها "الغذّامي" استثناءات في تاريخ الأنظمة السياسية العربية، وهي تحديدا فترة حكم الخلفاء الرّاشدين الأربعة، بالإضافة إلى فترة حكم عمر بن عبد العزيز، أو من سمّي بخامس الخلفاء الرّاشدين، معلّلا تراجع الشعر في هذين الفترتين، إلى أنّ حكّامها بغض النّظر عن طريقة وصولهم إلى الحكم كانوا يحظون بالدّعم الجماهيري والشعبي وبالتالي فهم ليسوا بحاجة إلى الشاعر/الكلمة لتدعيم تواجدهم على رأس السلطة، على عكس أولئك الحكّام الذّين يغتصبون الحكم، ويفرضون أنفسهم على النّاس، وبالتالي يحتاجون إلى وسائط/شعراء مدّاحين لتلميع صورتهم لدى الشعب/جماهير الشعب.

ويجعل "الغذّامي" مجموعة شروط ومواصفات، عن طريقها تمت شعرنة الذات العربية، حيث حملت قيّما في لاوعيها قد ترفضها إذا تعاملت معها في واقعها، محمّلا دائما الشعراء وحدهم مسؤولية هذه الشعرنة، ومن هذه المواصفات والشروط:

1- تغليب الوجدان، وتغييب العقل؛ حيث تعطى الأولوية لكثير من القيّم الّتي لا يستسيغها التفكير العقلي أو العقلاني.

2- عزل اللّغة عن التفكير، ومن خلال تضخيم الجمالي وإعطائه قيمة تتعالى على العقلي والفكري[23]، ممّا يسهل عملية تمرير الأنساق والاستجابة لها.

3- عدم تنسيب المتن الثقافي، ممّا أعطاه مكانة تتعالى على الزمن والتاريخ، وجعل القيّم الّتي يعبّر عنها بعيدة عن النقد وإعادة المساءلة.

هذه المواصفات الّتي يقدمها "الغذّامي" للنّص العربي الذي تحوّل إلى نسق قادر على استيعاب كلّ العيوب النسقية ومن ثمّة تخزينها لتظهر بشكل جديد، هذه الصفات تقودنا إلى سؤالين هامين: ألا تستطيع هذه النّصوص أن تمتصّ الأنساق الايجابية؛ معنى ذلك أنّها منتجة خصيصا لتنقل قيّما سلبية؟

- هل فعلا النّصوص الّتي انتقاها "الغذّامي" في دراسته الثقافية لا تنطوي إلاّ على العيوب النسقية الّتي ترسّخ قيّم التشعرن؟

لنأخذ "المتنبي" كشاعر مّداح ركّز عليه "الغذّامي" في دراسته، باعتباره كان متكسّبا بشعره، سواء في مدحه أو في هجائه، وهو الشاعر الذي تنقل بين بلاطات مختلفة يبيع هناك شعره/ذمّته، وهل فعلا كان يبيع ذمّته مع شعره؟ ثمّ هل ذنب الشاعر أن يكون هناك من يشتري الكلمة كما يشتري الغذاء !

لنعد إلى المسار التاريخي للمتنبي كشاعر؛ إذ المعلوم أنّ "المتنبي" غادر بلاط سيف الدّولة بعدما لم ينتصر الخليفة له في حادثة المفتاح[24] الّتي كانت بعد مناظرة بينه وبين "ابن خالويه" وتكون هذه الحادثة سبب قطيعة بين الشاعر المتنبي وبين البلاط الحمداني، ولم يعد إليه قطّ حتى موته. فهل يمكن لشاعر يثور على شرفه العلمي المعرفي أن يبيع ذمّته؟

ومن النّاحية الشعرية، يعامل شعر "المتنبي" كحِكم، ليس من طرف قارئ واحد فحسب، فهذا الناقد العربي القديم يسأل عن أشعر الثلاثة من بين "المتنبي" و"أبو تمام" و"البحتري" فيجيب بأنّ "المتنبي" و"أبو تمام" حكيمان والشاعر "البحتري". فكيف يكون نصّ لحكيم مغلّبا للوجدان على العقل، وفاصلا للّغة عن التفكير، كما يقول "الغذّامي"؟ مع أنّ الانتقائية في النّصوص الّتي اعتمدها النّاقد يؤدي بنا أحيانا إلى تأييد رأيه ومخاصمة الشاعر، وإن رأيه هذا يعود بنا إلى النظرة الأفلاطونية القديمة للشعر.

4- مقولة الفحولة:

من خلال ما قدمناه من عرض لمقولة الشعرنة، يمكن اعتبار مقولة الفحولة سليلة للأولى ومكمّلة لها، إذ أنّ المجسِّد لشعرنة الذات العربية وقيمّها، هو نفسه الزارع لخطاب الفحولة، من خلال أناة الشاعرة الفحولية والّتي يمثّلها الشاعر/ الفحل العربي.

لكنّ الملاحظ هنا، أنّ هذه المقولة لم تكن مقترنة بالتّأسيس للنقد الثقافي فحسب، بل ظهرت هذه النظرة الغذّامية في أعماله السابقة، خاصة في تطبيقات النقد النِّسوي، من خلال أعماله السابقة على النّقد الثقافي ومن مثل عمله "تأنيث القصيدة ".

لقد جعل "الغذّامي" الفحولة أحد الأنساق الأساسية المحددة للشخصية العربية، والثقافية العربية إجمالا وهذا يقودنا إلى طرح مجموعة من الأسئلة لمناقشة هذا الطرح "الغذّامي" من بينها: ماهي نسقية الفحولة في الثقافة العربية؟ وما الذي يحدّد بعدها النسقي؟ وهل نسقية الفحولة ظلّت مجرّد مفهوم رمزي ودلالي لمعنى الخصوبة يحمله المجتمع لتحقيق طموحه في دوام الخصب والعطاء لطبيعيات الجغرافيا العربية؟ ومن ثمّة تجسّد على لسان الشعراء وهم يربطون جيّد الإنتاج الإبداعي بالفحولة، وصار الانتصار لها من باب المفهوم الرمزي؟ هل هذا النسق الفحولي لا تاريخي أم أنّه يتخذ ألوانا و سيمات مختلفة باختلاف العصور؟ [25]

إنّ هذه الأسئلة تفرض نفسها علينا ونحن بصدد مناقشة مقولة الفحولة من خلال النسق الثقافي، وهذا يستدعي منّا فعلا تأمليّا، والانطلاق من فضاء الثقافة العربية ذاتها. هذه الثقافة الّتي تحكم على الشاعر الفحل بأنّه ذلك الذي استطاع أن يحقق ذاته شعريّا/لغويا وكانت له مكانة بين كبار الشعراء، حسب تصنيفات مختلفة قد ترتبط بالكثرة والنّوع والتّعدد إلى نوع الجنس ليتصل بمفهوم الخصوبة، وعندها تصبح الفحولة مفهوما نسائيا، تشكل في المناخ النّسائي، لتصير الفحولة "ادعاء رجاليا، ومطلبا نسائيا" [26]، بل يذهب "سعيد يقطين" إلى أبعد من هذا، برأي مخالفا تماما لرأي "الغذّامي"، ويرى أنّ الفحولة إن لم تتوفّر في الشعر بأوسع معانيها وهي تسعى إلى تحقيق المطلب النسائي فـ " ذلك دليل على ضعف المجتمع. وبهذه الصورة ليست الفحولة نقيضا للأنوثة، ولكنّها نقيض اللافحولة لسبب بسيط يتمثّل في كون الأنوثة لا يمكنها أن تتحقق بدون فحولة، إذ بواسطتها يتم الخصب وإلاّ فهي العقم" [27] .

هذا التصّور الذي يقدمه يقطين ينقض التصوّر القائم حول فكرة الفحولة في الثقافة العربية، التي تجاهلت وجود الخصوبة عند المرأة، وجعلتها قرينا للرجل وفقط.

والفكرة بمفهومها الأوّل هي الّتي يتبنّاها "الغذّامي" في طرحه النقدي الثقافي، فيرى أنّ الشاعر "نزار قبّاني" غارق في نسقية الفحولة، باعتباره شاعرا أوّلا، ورجلا ثانيّا، وهذا ما عمل على ترسيخه من خلال شعره الّذي حمل الصفة نفسها؛ أي الفحولة، مثله في ذلك مثل باقي الشعراء، كـ "المتنبي" و "عمرو بنو كلثوم" و "أدونيس"، بل إنّ

الحكّام الطغاة –حسبه- لم يخلو من هذه الصفة مثل "صدام حسين". ونلاحظ هنا أنّ كلّ النّماذج التي بني عليها نقده هي نماذج ذكورية، ممّا يجعل الفحولة/ مقولة الفحولة مقترنة بالجنس أوّلا وقبل كلّ شيء.

فلو عدنا إلى عمله "النقد الثقافي" نجد أنّ "الغذّامي" ركّز في بنائه مقولة الفحولة على الشاعر "نزار قباني"، هذا الأخير الّذي وجّه معظم شعره نحو المرأة/الحبيبة/العشيقة/الصاحبة، متناولا مفاتن المرأة في شعره وممارسا نوعا من "الزنى بالكلمات، والقذف العلنيّ"[28]دون أن يستطيع أيّ كان مواجهة هذا الرجل/الشاعر/الفحل بجريمته الثقافية، وذلك أنّه فحل الفحول/شاعر الشعراء، وهو الوحيد القادر على انتهاك عذرية اللّغة وفضّها، لأنّه كما يعتقد هذا الشاعر الفحل (وهو نزار قباني هنا)أنّ الكلمات "عذارى، وتظلّ كذلك إلى أنّ يضاجعها كي تتعهّر، وعبر معاشرة الشاعر الفحل لها تتحوّل اللّغة إلى أميرة أو إلى خادمة"[29].

إنّ "الغذّامي" في نظرته الثقافية هذه إلى الشعراء الفحول، يرى أنّهم ورثة "علقمة الفحل"، وذلك الشاعر العربي الّذي حقّق الفحولة بشقيها، الشعري منها، والرجولي أو الذكوري، حينما تغلّب على "امرئ القيس" شعريّا، وسلب منه زوجته فحوليّا/ ذكورياّ.

ويعود "الغذّامي" مرّة أخرى، ليحمّل البلاغة العربية و رؤيتها الجمالية للنّص مسؤولية التغاضي عن شعر كهذا، حتّى تمكنّ فينا نسق الفحولة، وأصبحنا نستلذه ونطلبه كقراء للشعر وممارسين له، فمشكلتنا أنّنا "استسلمنا لقاعدة نقدية (بلاغية) ذهبيّة تمنعنا من النّظر في عيوب الشعر لأنّها تحرّم علينا مساءلة الشاعر عن أفكاره، وتحدد لنا مجال الرؤية في ما هو جميل وبلاغي"[30].

ولذلك، فقد جاءت هذه النسقية الفحولية الّتي ترسخت في الذّهن العربي لتنظر إلى المرأة كجسد لإشباع الرغبات والنزوات الجنسية، هذا الجسد الّذي يستريح إليه الرجل لكي يغذّي حاجته الجنسية فحسب

ولذلك فقد تقلّصت المرأة في شعر كشعر نزار قباني إلى مجموعة محدّدة من العناصر، هي:

نهداك/ أعضاؤك في المرآة/القد/ الشعر/ الثغر.

وهي كلّها صفات جسدية تحملها المرأة، وهذه الصفات تطغى على شعر نزار قباني، حتّى أنّه "يحدث في تكرارها المستديم حسّ تهييّجي و شبقي صارخ"[31]، لكنّ المشكلة الثقافية الّتي حدثت هي استجابة القراء والمستمعين لشعر هذا الفحل والتفاعل معه، ممّا أدّى إلى تماديه في رعونته اللّغوية والشعرية، وهنا تكمن خطورة التعهّر باللّغة.

إنّ "الغذّامي" من خلال عرضه هذا، ودراسته لشعر نزار، يشير إلى الخطورة الكبيرة التي أدت إليها عدم مساءلة المتن الابداعي للشعراء الفحول، فعاثوا في اللغة و القيم فسادا انطلاقا من رؤيتهم المتعالية إلى المجتمع، و هذا ما انعكس على ذواتهم، فاكتسبوا صفة الذات المتعالية التي تقول و تفعل ما تشاء.

لكن لنعد مرة أخرى و نتساءل: هل فعلا هذه الذات الشاعرة المتعالية المستفحلة/ الفحولية هي السبب في ترسيخ قيّم الفحولة في المجتمع العربي؟ وهل الفحولة الشعرية هي وحدها المسؤولة عن فساد القيّم الثقافية للمجتمع العربي؟ وإذا كان الأمر كذلك، لما لم تتسّبب الفحولة الشعرية عند شعراء سابقين كـ "بشار بن برد" و"أبو نواس" في إفساد القيّم الثقافية للمجتمع العربي، مثلها مثل شعر المجون الّذي عرفه الشعر العربي عبر تاريخه الطويل؟ أم أنّ المناهج الغربية تخلق في منظومتنا الثقافية العيوب الّتي ينبغي لها أن تكون وليست بما هي كائنة فعلا؟

خاتمة:

جاء مشروع النقد الثقافي لدى الناقد السعودي عبد الله الغذّامي ليحاول التأسيس لقراءة نقدية نسقيّة عربية، تتماشى وطبيعة المعطيات الثقافية العربية، وكذا خصوصيتها، ولذلك صاغ لمشروعه مجموعة من المصطلحات النقدية التي جاءت استجابة لطبيعة الدراسة الثقافية التي أجراها على مجموع النصوص الثقافية التي انتقاها، وحاول الخروج منها بنتائج صاغتها المقولات النقدية التي كانت بمثابة نتائج مكثّفة لمشروعه بأكمله، حيث:

1- مقولة النسقية: التي حملت بعدا توصيفيّا في الدراسة الثقافية عند عبد الله الغذّامي أكثر منها بعدا مفهوميّا؛ إذ أنّ الدارس إذا حاول الاعتماد على هذه نتائج هذه المقولة فإنه سيكون عاجزا عن التحديد الدقيق لفكرة النسق في حدّ ذاته، ولكنّه سيتسلّح بمجموع المواصفات التي قدّمت له عن النسق داخل الثقافة، وكيفية اشتغاله، وهل هو متحقق فعلا في الممارسة الخطابية/الثقافية.

2- مقولة الفحولة: والراسخة في الثقافة العربية والشعر العربي تحديدا، لأنّ الشاعر الجيّد يكنّى بـ"الفحل"، ومن ثمّة انتقلت الفحولة من بعدها البيولوجي إلى البعد الثقافي، لتعود تحت هيمنة القوّة الثقافية فتجمع المعنيين، وتقدّم الشاعر/الذكر على أنّه الفحل دائما، وتواري الابداع النسوي من خلفه، وهذا خاضع لطبيعة المجتمع المبنّي على السلطة الأبوية ثقافيًا.

3- مقولة الشعرنة: التي جاءت نتيجة للمقولتين السابقتين، وتأكيدا لهما، إذ أنّ الشعر العربي؛ بقيَمِه ولغَتِه فعل فعلَه في الذات والثقافة العربية، فأصبحت هذه الذات مفتونة لغوّيًا، تطربها الكلمة الجميلة، وتهزّها العبارة البليغة، التي استغلّت من طرف المضمر النسقي لتمرير العيوب النسقية وترسيخها لدى الذات الثقافيّة.

قائمة الإحالات:

1- عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط:3، 2005م. ص 76.
2- عبد الفتّاح كِيليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط:2، 2001م. ص8. نقلا عن كتاب بارت (التّحليل البنيوي للحكاية).
3- ينظر: عبد الفتاح كِيليطو: المقامات، ص 8. عن كتاب رولان بارط (R.Barthes) S/Z
4- سليمان الحبيب: إضاءات حول النقد الثقافي، مقال منشور بالموقع الإلكتروني: www.doroob.com، بتاريخ 2005/05/24م.
5- ينظر: عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، الفصل الثاني، ص74-76.
6- محمد مفتاح: النّص، من القراءة إلى التنظير، شركة النّشر المدارس، الدّار البيضاء، المغرب، ط:1، 2000م، ص 49.
7- عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، ص77.
8- نفسه، ص77/78.
9- عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف، نقد أدبي أم نقد ثقافي، حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق، ط:1، أيار 2004، ص32.
10- جمال العيفة: الثقافة الجماهيرية، عندما يخضع وسائل الإعلام و الاتصال لقوى السوق، عنابة، الجزائر، د.ط، 2003م، ص43-44.
11- معجب الزهراني: النقد الثقافي نظرية جديدة أم مشروع متجدد، ص 476.
12- ينظر: عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط:1، 2004م، ص 541.
13- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص 79.
14- عبد الفتاح كِيليطو: المقامات، ص 8.
15- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص 80.
16- سهيل الحبيب: خطاب النقد الثّقافي في الفكر العربي المعاصر، معالم في مشروع آخر، دار الطليعة، بيروت، ط:1، 2008م، ص 58.
17- سعيد يقطين: النقد الثقافي والنّسق الثّقافي، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ع:97/98، 1422هـ،ص 184.
18- عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي، ص 93.
19- عبد الله الغذّمي، عبد النّبي أصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 47.
20- عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي، ص 100.
21- أسامة الملا: الغذّامية -خطاب الشّعرنة، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،ع:97/98، 1422هـ، ص65.
22- عبد العزيز السّبيل: "الشّعرنة" بين السّياسة والشّعر، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ع:97/98، 1422هـ، ص 261.
23- عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي، ص82-83.
24- زرقاوي عمر: نحو تأصيل لمنهج النقد الثقافي، مجلة علامات، ج:57، م:15، النادي الأدبي الثقافي، جدة، سبتمبر2005م. ص285.
25- سعيد يقطين: النّقد الثّقافي والنّسق الثّقافي، ص183
26- نفسه، ص184.
27- نفسه.
28- عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي، ص255.
29- نفسه، ص154.
30- نفسه، ص262.
31- نفسه، ص263.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أسامة الملا: الغذّامية -خطاب الشّعرنة، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،ع:98/97.
2- جمال العيفة: الثقافة الجماهيرية، عندما يخضع وسائل الإعلام و الاتصال لقوى السوق، عنابة، الجزائر، د.ط، 2003م.
3- زرقاوي عمر: نحو تأصيل لمنهج النقد الثقافي، مجلة علامات، ج:57، م:15، النادي الأدبي الثقافي، جدة، سبتمبر2005م.
4- سعيد يقطين: النّقد الثّقافي والنّسق الثّقافي، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ع:98/97، 1422هـ.
5- سليمان الحبيب: إضاءات حول النقد الثقافي، مقال منشور بالموقع الإلكتروني: www.doroob.com، بتاريخ 2005/05/24م.
6- سهيل الحبيب: خطاب النّقد الثّقافي في الفكر العربي المعاصر، معالم في مشروع آخر، دار الطليعة، بيروت، ط:1، 2008م.
7- عبد العزيز السّبيل: "الشّعرنة" بين السّياسة والشّعر، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ع:98/97، 1422هـ.
8- عبد الفتاح كيليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط:2، 2001م.
9- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط:1، 2004م.
10- عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط:3، 2005م.
11- عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف، نقد أدبي أم نقد ثقافي، حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق، ط:1، أيار 2004م.
12- محمد مفتاح: النّص، من القراءة إلى التنظير، شركة النّشر المدارس، الدّار البيضاء، المغرب، ط:1، 2000م.
13-معجب الزهراني: النقد الثقافي نظرية جديدة أم مشروع متجدد، كتاب الغذّامي النّاقد، قراءات في مشروع الغذّامي النّقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،ع:98/97، 1422هـ.